﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا يصحُّ الإيمانُ إلا باجتماعِ أصولِه من التّوحيدِ والرّسالةِ والحشر

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ، وهو: التَّوحيدُ، وأشار إلى الأصلِ الثّاني، وهو: الرِّسالةُ، بقَولِه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ شرَعَ في بيانِ الأصلِ الثّالثِ، وهو: الحَشرُ، وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ لا يَكادُ يَنفَصِلُ بَعضُها عن بعضٍ في الذِّكرِ الإلهيِّ؛ فأينَما يَذكُرِ اللّهُ تعالى منها اثنَينِ يَذكُرِ الثّالثَ[1].

ولَمّا كان التّقديرُ في الآيةِ السّابقة وعظًا مِن إبراهيمَ لقومِه وتهديدًا لهم بما حلَّ بالمكذّبين: ألمْ تروا إلى مصارعِهم؟ واتّساق الحال في أمرهم؟ فيكفيكم ذلك زاجرًا؛ ناسبَ أنْ يعطفَ على هذه الدعوة في التّفكّر في مصارعِ المكذّبين التّفكّرَ في آثارِ قدرةِ اللّه على الخلقِ للدّلالة على إثباتِ الرجوع إليه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبْدِئُ﴾: (بدأ) أصلٌ يدلّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ، يُقالُ: بَدَأْتُ بالْأَمْرِ وابتَدَأْتُ، مِنَ الابْتِداءِ، واللَّهُ تَعالَى الْمُبْدِئُ والْبادِئُ[3]، هوَ الّذي أنشأ الأشياءَ واختَرعَها ابْتِداءً مِن غيرِ سابقِ مِثالٍ[4]، والبَدْءُ والابتداء: تقديمُ الشّيء على غيره ضربًا من التّقديم، وبَدَأ الشّيْءَ: فعَلَه ابتِداءً، أي قَدَّمه في الفِعل، والبَدْءُ والبَديءُ: الأوَّلُ، ومَبْدَأُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1436.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).
(4) ابن الأثير: النّهاية: (بدأ).

الشّيء: هو الّذي منه يتركّب، أو منه يكون[1]، ومعنى ﴿يُبْدِئُ﴾ موافقٌ للمعنى اللّغوي، وهو الفعلُ الّذي لم يُسبَق إليه، فاللّهُ يَبْدَأُ الخلق: أي يخلُقهم ابتداءً من نطفةٍ، ثم من مُضغة إلى أنْ يتمّ الخَلْق[2].

2) ﴿يَسِيرٌ﴾: (يسر) أصلٌ يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، والْيُسْرُ: ضِدُّ الْعُسْرِ[3]، واليُسْرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسارُ واليُسْرُ واليَسارَةُ والمَيْسَرَةُ: السّهولةُ والغنى والسَّعَة، والْيَسيرُ: الهَيِّنُ أو الْقَليلُ، يُقال: شيءٌ يَسيرٌ، أي هَيِّنٌ أو قَليل[4]، والمقصود بـ﴿يَسِيرٌ﴾ في الآية: السّهلُ والهيّن، والمعنى: إعادةُ الخلقِ على اللّهِ سهلٌ وهيّنٌ لا يتعذّر عليه ذلك، كما كان يسيرًا عليه ابتداؤه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آيةٌ من آياتِ الحِجاجِ ولفتِ الأنظارِ إلى آثارِ قدرةِ الله الباهرة القاهرة

ذَكَرَ اللّهُ تعالى ما يدُلُّ على أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّه تعالى لا شيءَ يُعجِزُه، فكأنّ المعنى في هذا الخطاب القرآنيِّ هو: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشركونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتدِئُ اللّهُ الخَلْقَ بعدَ العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه من بعدِ فنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى؟ إنَّ ذلك على اللّهِ تعالى أمرٌ سَهلٌ، والّذي قَدَرَ على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أرادَ شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام في قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾:

إنكارٌ على تكذيبِ الكافرين بالبعثِ معَ وضوحِ دليلِه وسنوحِ سبيلِه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ لإنكارِ عدمِ رؤيتهم الموجبِ لتقريرها[6]، نُزّلوا منزلةَ مَنْ لمْ يرَ فأنكرَ

(1) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 403.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (يسر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 6 - 7.

عليهم[1]، والتّقدير: ألم ينظروا ولم يعلموا علمًا جاريًا مجرى الرؤية في الجلاء والظّهور كيف أنّ اللّه تعالى خَلَقَ الخلقَ ابتداءً من مادّةٍ ومن غيرِ مادّة، أي: قد علموا[2]، ويمكن أنْ يُجعل الاستفهام للتّقرير، ويكون الإنكارُ تابعًا له متولّدًا عنه، أي: يقرّرهم اللّه تعالى برؤيتهم لِما ذَكَرَ، ثم يُنكرُ عليهم عدمَ جَرْيهم على موجبِ علمهم؛ لأنّ المَقامَ يستدعي أنْ يكون الاستفهامُ في الآية للتّقرير؛ لأنّ الكلامَ مسوقٌ فيه للتّوقيف والإلزام، ولأنّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخير، والأصلُ: وألم يروا، فدخلتْ همزة الاستفهام على (لم) فأزالتِ النّفي الواقعَ منها على فعل الرؤية، فصار المعنى إثباتًا[3].

دلالةُ التّعبير بلفظ الرؤية هنا:

تجدّدُ المخلوقات واضحٌ لكلّ ذي بصرٍ أو المعوّل عليه العلم لا مجرد البصر

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قَلْبيَّةٌ عِلْميَّةٌ مُتعَدّيةً إلى مفعولَين، أنكَر عليهم تَرْكَهم النَّظرَ والاستدلالَ الموصلَ إلى علم كيفيّةِ ابتداءِ اللّه الخلْقَ ثم إعادته؛ لأنَّ أدلَّةَ بَدْءِ الخلقِ تُفضي بالنّاظرِ إلى العلمِ بأنَّ اللّهَ يعيدُ الخلْقَ، ويؤكّدُ كونها علميّةً أنّ طريقَ حصولِ هذا العلم هو التّأمُّل، وليس البصر، حتى وإنْ كان للبصرِ مدخلٌ هنا فالمعوّلُ عليه في حصولِ المعرفة في هذا الموضع ونظائره هو العقل[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ بَصريّةً، والاستدلالُ بما هو مشاهَدٌ من تَجَدُّدِ المخلوقات في كلّ حينٍ بالولادةِ، وبروزِ النّبات دليلٌ واضحٌ لكلّ ذي بَصَرٍ[5].

توجيهُ القراءات الواردة في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾:

المُـخـاطَـبُ على الـقـراءتـين هو اللهُ مباشرة أو على لسانِ نبيّه إبراهيم عليه السلام

قَرَأ بصيغةِ الخطابِ ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ بخُلف عنه وخلف، لتشديدِ الإنكارِ وتأكيدِه[6]، والمخاطَبُ بذلك قومُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(4) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.

إبراهيم ﷺ أي إنّه أراد: معنى المواجهة بالخطاب لمّا أنكروا البعثَ والنّشور، فقيل لهم: فإنكاركم لابْتداءِ الخَلْقِ أولى بذلك، فإمّا أنْ تنكروهما جميعًا أو تُقِرّوا بهما جميعًا[1].

وقرأ الجمهورُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بياء الغائب[2]، والضميرُ عائدٌ إلى الّذين كفروا في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العنكبوت: 12]، أو إلى معلومٍ من سياقِ الكلام، على طريقِ الغَيْبة والبلاغِ لهم[3].

وعلى القراءتين يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ من جهةِ اللّه سبحانه وتعالى، أو مِنْ جهةِ إبراهيمَ ﷺ، إلا أنّ قراءة الجمهور ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ تُرجّحُ أنْ يكونَ الخطابُ في هذه الآية من اللّه لا من إبراهيم، ومناسبةُ هذا الخطاب من اللّهِ للمشركين بعد كلام إبراهيم لقومه هو ما جرى من الإشارةِ إلى البعث في قوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تنظيرًا لحالِ مشركي العرب بحالِ قوم إبراهيم[4].

بلاغة الالتفات من الخِطابِ إلى الغَيبةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إذا لم يُعتبر خطابًا من إبراهيم لقومه، واعْتُبِرَ خطابًا مسوقًا من جانبِ اللّه تعالى إلى المشركين الّذين كفروا بالنّبيّ محمّد ﷺ فيكونُ ضميرُ الغائبِ في الآية اللّاحقة في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ التفاتًا مِن ضمير الخِطابِ إلى ضمير الغَيبةِ؛ لنُكتةِ إبعادِهم عن شَرَفِ الحضورِ بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُكَذِّبون[5]، أمّا إذا اعْتُبِرَ مسوقًا من جانبِ إبراهيم لقومه فيكون الالتفاتُ من ضمير خطابهم ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ

في الغَيبةِ إبعادٌ إلهيٌّ للمشركين عن شرَفِ الحضورِ أو إعراضٌ من إبراهيمَ عن قومه

(1) ابن خالَوَيْهِ، الحُجَّة في القراءات السَّبْع، ص: 279.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 343.
(3) ابن خالَوَيْهِ، الحُجَّة في القراءات السَّبْع، ص: 279.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 227.

فَقَدْ كَذَّبَ﴾ إلى ضمير الغَيبة في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ إعراضًا عنهم وتوبيخًا لهم.

مفهومُ الاستفهام في قوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾:

استفهامٌ مجازيٌّ للتَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ بقصدِ الاعتبار لا في طلَبِ الإخبارِ

الاستِفهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ، لا في طلَبِ الإخبارِ[1]؛ لأنّ المراد بـ﴿كَيْفَ﴾ هنا هو الكيفيّة الواقعة مفعولًا أوّلَ لـ﴿يَرَوْاْ﴾، وهذا المفعولُ الأوّل سدَّ مسدَّ المفعولين لاكتفاء المعنى به والتّقدير: ألم يعلموا كيفيّة بَدْءِ اللّهِ الخلقَ، وهذا معنًى تامٌّ يحسنُ السّكوت عليه من المتكلّم والسّامع[2].

دلالةُ التّعبير بفعل البَدْءِ دون سواه:

لفتِ الانتباه إلى قدرة الله على الخَلْقِ من العَدَمِ، وأنّ مَن بَدَأ الخلقَ يعيدُه وهو أهون عليه

آثرَ البيانُ القرآني استعمال لفظ البَدْءِ في قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾؛ لأجل لفتِ الانتباه إلى معنى آخر إضافةً إلى الإيجاد - الّذي هو وجودُ الشّيء في حيّز وإخراجه من العدم - ألا وهو معنى الابتداء في الإيجاد أوّلَ مرّة؛ فالبَدْءُ يدلّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ[3]، وبَدْءُ الخَلْقِ إنشاؤه لأوّل مرّة[4]، من غيرِ سابقِ مِثالٍ[5]، كما أنّ في التّعبير بالبَدْءِ مراعاةً للسّياق الّذي ذُكِرَتْ فيه الإعادةُ وهي: النَّشأةُ الآخرة؛ لتتحقّق بذلك المقابلة بين النَّشأةَ الأولى والنَّشأةَ الآخرة، بما يدلّ على كمالِ قدرته سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع:

تجدّدُ بَدْءِ الخلْقِ كلَّما رآه النّاظرُ أبلغُ في الاستدلالِ على كمالِ قدرته سبحانه

التّعبير بصيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ بَدْءِ الخلْقِ كلَّما وجَّهَ النّاظرُ بصَرَه في المخلوقاتِ[6]، أي يجدّد إبداءه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 225.
(3) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدأ).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (بدأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.

في كلّ لحظة[1]، وهذا أبلغُ في الدّلالةِ على عظيمِ قدرتِه سبحانه وكمالها، وعلى استحقاقه للعبادة دون الأصنام المخلوقة والمنحوتة بأيديهم، ومن ثَمَّ فهو أدَلُّ بذلك على الإيمان.

سِرّ إظهار لفظ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾:

الاسمُ الدالُّ على كلّ كمالٍ يتجلّى بمَعْنى القدرة التامَّةِ الكاملةِ

رغمَ أنّ الحديثَ في الآياتِ السّابقة عن اللهِ سبحانه؛ ورغمَ أنَّ بَدْءَ الخلْقِ لا يصلُحُ إلا له إلا أنّ البيانَ القرآنيَّ أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾؛ بيانًا لعظمةِ الخالقِ سبحانه وعظمة هذا الدّليل، وهو دليلُ ابتداءِ الخَلْقِ من العدم وإعادة الخلق بعد الموت، الّذي يُناسبه إظهار الاسم الجليل الّذي يجمعُ كلّ صفاتِ الجلال والجمال والكمال، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه قد وردَ صريحًا عشرَ مرّات في السّياق القريب لهذه الآية.

سِرُّ إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ دون غيره:

الخلقُ يختصُّ بالباري تعالى، وتنوُّعُه يدلُّ على كمالِ قدرته

آثرَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ دون غيره كالإيجاد مثلًا؛ لأنّ لفظ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ يعني إبداعَ الأشياء، وإيجادَها على مثالٍ لم يُسبق إليه[2]، أي: يُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ ولا سابق مثالٍ، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أيْ: هو إيجادٌ من العدم، وهو بهذا المعنى يختصُّ بالباري تعالى وليس إلا له، إذن يتميَّز لفظُ الخلْق عن غيره بمعنى التّقدير والإبداع والأوّليّة، ويشملُ كذلك معنى إيجادِ الشّيء بالشّيء[3]، أي: حتّى وإنْ كان من أصل، وفي هذا دلالةٌ على أنّه سبحانه قادرٌ على الإطلاق؛ يخلقُ من غير أصلٍ، كما خلقَ السموات والأرض، ويخلقُ من أصلٍ كخَلْقِ ما بينهما، فيُنشئ من أصلٍ ليس

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 414.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

من جنسه؛ كآدم خَلَقَهُ من تراب، ومن أصلٍ يُجانسه كخَلْقِ حوّاءَ من آدم، أو كخَلْقِ عيسى من مريم ﷺ، أو كخَلْقِ ذرّيّة آدم وحوّاء منهما، وهذا التّنوّع في الخلقِ يدلُّ على كمال قدرته، ومن ثَمَّ كان لفظ الخلقِ أنسبَ للسّياق الّذي يَظهر فيه كمالُ قدرة الله تعالى.

سِرّ (أل) التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

هو الخالقُ لكلّ الخلقِ لا خالقَ غيرُه سبحانه

(أل) التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ تفيدُ العمومَ لأنه لاستغراق الجنس، أي: إنّ اللّهَ يُبدِئ كلَّ الخلق بجميعِ أنواعه من الإنسان والحيوان والنبات والجمادات، أي يخلُقُها ابتداءً، بما يدلُّ على عظيم قدرته سبحانه.

علاقة عبارة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ بما سبق ودلالتها:

تنزيل الإعادة منزلةَ ما يُرى بالبصر لوضوحها

عبارة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ لا على ﴿يُبۡدِئُ﴾؛ لعدمِ وقوعِ الرُّؤية البصريّة عليه فهو إخبارٌ بأنَّه تعالى يعيدُ الخلقَ قياسًا على الإبداء، وقد جوِّز العطفُ على ﴿يُبۡدِئُ﴾ إمّا بتأويل الإعادةِ بإنشائِه تعالى كلّ سنة مثلَ ما أنشأه في السَّنةِ السّابقةِ من النّبات والثّمار وغيرِهما، فإنَّ ذلك ممّا يُستدَلُّ به على صِحَّة البعثِ ووقوعه من غير رَيبٍ[1]، أو بأنْ تكونَ الإعادة هي البعث بعد الموت ودخولها في حيز الرّؤية باعتبار ورود البراهين والأدلّة القاطعة على إمكانها عقلًا، ووجوبها شرعًا، وأنّ هذا نزلَ لوضوحه وضرورة التّسليم به منزلةَ ما يُرى بالبصر إنْ كانت الرّؤية بصريةً، أو منزلةَ ما حصلَ به العلمُ الضّروري إنْ كانت الرّؤيا علميّةً، وما أكثرَ ورودَ هذا التّنزيل في كتاب اللّه العزيز[2]، ويكون العطف "من حيثُ إنَّ مشاهدةَ حالِ الابتداء جُعِلَتْ مشاهدةً لحالِ الإعادة من حيث إنّه لا فرق"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 226.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.

دلالة التّعبير بالمضارع:

تجديدُ إعادته سبحانه لخَلْقِ النّبات مستمرٌّ ويساهمُ في إحداثِ صورةٍ للمعاد

جاء الفعل ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾؛ ليفيدَ تجدّد إعادته سبحانه المخلوق بعد موته في كلّ لمحةٍ، هذا إنْ كان المقصود بالإعادة في الدنيا للنّبات[1]، الّذي جعله اللّهُ دليلًا على المعاد بعد الموت[2]، قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: 11]، وإنْ كان المقصودُ بالإعادة هو البعثُ فمجيءُ الفعل بصيغة المضارع يفيدُ تصويرَ حدثِ الإعادة يوم القيامة، بما يحمله ذهنُ القارئ والمستمعِ من صورٍ لإعادةِ خَلْقِ النّبات، كما أنّه يفيد الدّليل على المعاد.

بلاغةُ التّعبير بالطباق:

قدرةُ الله تستوعبُ كلّ شيء من الموجود والمعدوم

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ جَمعَ النَّصُّ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، وهما: ﴿يُبْدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ على سبيلِ الطِّباق، ممّا زادَ الكلامَ حُسنًا، ودلّ على أنّ كمالَ قدرةِ الله تستوعبُ كلّ شيء من الموجودِ والمعدوم؛ من الخلقِ والإماتة والإعادةِ بعد الموت، والدّنيا والآخرة، فهو سبحانه على كلّ شيء قدير، وكلُّ شيء عليه يسير.

توجيه المتشابه اللفظي: بين ﴿يُبْدِئُ﴾ و﴿يَبْدَؤُا۟﴾:

تَفَنّنٌ في الكلام وتنشيطٌ للأذهان تنبيهًا على أهمّيّة دلالة بَدْءِ الخلق على الإيمان

انفردتْ سورةُ العنكبوت بالتّعبير عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ بهذه الصيغة للفعل ﴿يُبْدِئُ﴾، وهو من (أَبْدَأَ) بهمزة في أوّله، بينما وردَ المتشابه اللفظيّ لهذه الآية في بقيّة المواضع بصيغة الفعل ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ [يونس: 4]، وهو من (بَدَأَ) بدون همزة في أوله، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 4]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 34]، وقوله

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.

تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [النمل: 64]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 11]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 27]؛ وذلك لأنّه قصدَ التّفنّنَ في الكلام والتّنشيط للأذهان؛ وخاصّة في العنكبوت؛ إذ قد وردتِ الصّيغتان معًا في السّياق القريب في الآيتين، ففي الأولى منهما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، وفي الثانية قال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20][1]، وهما: أبْدَأ وأعادَ، وبَدَأ وعادَ لغتان بمعنًى واحدٍ[2]، وهو الإنشاءُ من العدم، يقال: بدأهم وأبدأهم[3]، وقال في القاموس: "بدأ اللّه الخلق: خَلَقَهم، كأبدأ"[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أهمّيّة هذا الدّليل الّذي يتوقّف عليه الإيمان باللّه.

سِرّ الفصل في قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

فصّلَ النّظم الحكيم جُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ عمّا قبلها، فلم يأتِ بينهما بحرف رابط؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصال معنويّ يُغْني عن الرّابط اللّفظيّ؛ إمّا لكون هذه الجملة مُبيِّنةً لِما تَضمَّنَه الاستِفهامُ من إنكارِ عدَمِ الرُّؤيةِ المُؤدّيةِ إلى العِلْم بوُقوعِ الإعادةِ؛ إذ أحالوها مع أنَّ إعادةَ الخَلْقِ إنْ لم تكُنْ أيْسَرَ من الإعادةِ في العُرْفِ، فلا أقَلَّ من كَونِها مُساويةً لها[5]، أو لكونها مَسوقةً لتقريرِ ما قبله من قدرةِ اللّه على التّصرّف في الخلق؛ إحياءً وإماتةً وإعادةً[6].

بيانٌ لِما تَضمَّنَه الاستِفهامُ مِن الإنكارِ لعدَمِ رؤيةِ المشركين دليلَ الخلقِ والمعاد

بلاغة اجتماع المؤكِّدات في ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

أكّد النّظمُ الحكيم الخبرَ في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بعدّة مؤكِّدات؛ وهي: ﴿إِنَّ﴾ الّتي تفيدُ توكيد النّسبة بين المسندِ والمسندِ

مبالغةٌ في تأكيد سهولة أمرِ الخَلْقِ والإعادة بالنِّسبة إلى القادر العظيم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بدأ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(6) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 3/ 226.

إليه في الجملة، والمؤكِّد الثّاني: الجملةُ الاسميّة الّتي تفيدُ الثّبوتَ وقوّةَ الحُكْم وبَقاءَه، والمؤكِّد الثّالث: تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرٌ﴾؛ وقد أفادتْ كلّ هذه المؤكّداتِ مجتمعةً المبالغةَ في تأكيدِ أنّ الخلقَ ابتداءً، والإعادة إلى الحياة بعد الموت أمرٌ يسيرٌ وهيّنٌ على الله؛ لأنّه سبحانه لا يعجزه شيء، وقد قال في موضع آخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، أي أفادت تأكيدَ يُسْرِ أمرِ الخلقِ والإعادةِ بالنسبة إلى عظيم قدرته[1]، ووجْهُ توكيدِ الجُملةِ لأجل إنكارهم[2]، وردٌّ لدَعْواهم أنَّه مُستحيل[3].

الغرض من التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أشارَ البيانُ القرآنيُّ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الإعادةِ بعد الإبداء[4]، أو إلى ما ذكر من الأمرين وهما: بَدْءُ الخلق، وإعادته إلى الحياةِ مرّةً أخرى[5]، والنتيجةُ واحدة؛ لأنّ الإشارةَ إلى الأمرين يقصد منها أنّ صُنْعَ الله وآياته في الخلقِ بَدْءًا وإعادةً سواءٌ، ليدركَ الكافرون أنّ الّذي أنشأ يعيدُ بلا عناء.

صُنْعُ اللهِ في الخلقِ بَدْءًا وإعادةً سواءٌ، فالّذي أنشأ يعيدُ بلا عناءٍ

وقد آثرَ استعمالَ اسم الإشارة الّذي يُشارُ به للبعيد؛ للإشارة إلى حالهم مع المشار إليه، وأنّهم يستبعدونه، وكأنّه يقول: إنّ ذلك الّذي يرونه بعيدًا أي مستحيلًا هو على يسيرٌ، ذلك أنّهم ادّعوا استحالته[6].

دلالة التّعبير بـ﴿عَلَى﴾:

أفادَ معنى الاستعلاء في حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ المبالغةَ في بيانِ يُسْرِ أمْرِ البَدْءِ والإعادة بعد الموت، وعدمِ عُسْرِه على الله، وأنّهما بالنّسبة لقدرته وعلمه شيءٌ يسيرٌ،

من كمالِ قدرةِ الله تعالى أنّه لا يَعْسُرُ عليه شيءٌ

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11117.
(5) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 229.

وذلك لأنّه دلّ على الاستعلاء الكامل للّه تعالى، وكمالِ قدرته على الخلق والمعاد.

سِرّ وضعِ الاسم الظاهر موضع المضمر:

صفاتُ كَمالِه سبحانه توقعُ في الذِّهن كمالَ قُدرتِه على المعاد

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، ولم يُضمره رغمَ أنّه قد سبقَ ذكره سبحانه، فلم يقل: إنّ ذلك عليه يسير؛ تأكيدًا لكمالِ قدرته على الخلق والإعادة، بأنّه الجامعُ لكلّ صفات الكمال، المنزّه عن كلّ شائبةِ نقصٍ[1]، أي: أكَّد هذا الدليلَ بإظهار اسمِ الذّاتِ الّذي يُفْهِمُ المسمّى بصفاتِ كَمالِه، ونُعوتِ جَلالِه؛ ليقعَ في الذِّهن كمالُ قُدرتِه، وشُمولُ علمِه، ونُفوذُ إرادتِه[2].

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور على الخبر:

الأهمُّ في السّياق بيانُ استعلاءِ اللّه وقدرتِه على بدء الخلق وإعادته

تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿يَسِيرٌ﴾؛ لأنّ الأهمَّ في السّياق هنا بيانُ استعلائه وقدرته على بيان بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته، ثم جاء بيانُ على أيّ صفةٍ كانت قدرته في بَدْءِ الخَلْقِ وإعادتِه سبحانه وهي الغايةُ في اليُسْرِ، فلا يُعجزه شيءٌ، كما يفيدُه التّخصيص، ولذا عبّر بالاسم الجليل؛ للإشعار بأنّ بَدْءَ الخَلْقِ وإعادتَه يسيرٌ لا عسيرٌ على اللّه وحده، بمقتضى ألوهيّته، كما أنّ في التّقديم مراعاةً للفاصلة الّتي تليها وهي ﴿قَدِيرٌ﴾.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿يَسِيرٌ﴾:

اللّهُ يقيسُ للبشر بمقاييسهم، فالإعادةُ أيسَرُ من البَدْء في تقديرهم

المقصود بـ﴿يَسِيرٌ﴾ في الآية: السّهلُ والهيّن، أي إنّ المعادَ سهلٌ لا صعوبةَ فيه ولا يتعذّر عليه سبحانه كما كان يسيرًا عليه إبداؤه[3]، وقد استعملَ القرآن هذا التّعبير؛ لأنّه يناسبُ مَنْطِقَ النّاس وفَهْمَهم، وإلا فإنّ اليسير والعسير لا مفهومَ لهما عند من قدرتُه

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 415.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 157.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.

غيرُ محدودةٍ، ومطلقةٌ غيرُ مقيدةٍ، فهذه قدراتنا الّتي أوجدت مثل هذا المفهوم، ومع الالتفات إلى إنجازها، ظهرت لدينا أُمورٌ يسيرة وأُخرى عسيرة، أي إنّ الله يقيسُ للبشر بمقاييسهم، فالإعادةُ أيْسَرُ من البَدْءِ في تقديرهم؛ فليس في خلق الله شيءٌ عسيرٌ عليه، وإنّما هو توجّهُ الإرادة وكلمةُ (كُن) فيكون.

سِرّ اختلاف التّيسير والتّهوين بين العنكبوت والروم:

تفنّنٌ في الخطاب وتقريبٌ للأفهام بما يعقلون

يكمنُ الاختلافُ في التّعبير بين آيةِ العنكبوت ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وآيةِ الروم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 27] في مادّة الكلمة وصيغتها؛ أمّا المادّة فاليسيرُ هو الهيّن، واختلافُ المادّة بينهما تفنّنٌ في التّعبير وتنشيطٌ للأذهان، كما أنّ التّعبير بهما إنّما هو بالنسبة لمنطقِ البشر ومقاييسهم، فليس في خَلْقِ الله شيءٌ يسير أو عسيرٌ، أو هيّنٌ أو صعبٌ عليه، وأمّا الصّيغة فكلاهما فيهما مبالغة؛ أمّا ﴿يَسِيرٌ﴾ فهي بصيغة (فعيل)، وهي من صيغ المبالغة وأمّا ﴿أَهْوَنُ﴾ [الروم: 27] فهي بصيغة التّفضيل؛ وكذلك في هاتين الصيغتين خاطبَ فيهما العباد بما يعقلون، فأعلمَهم أنّه يجبُ أنْ يكونَ عندهم البعثُ أسهلَ من الابتداءِ في تقديرهم وحُكمهم[1]، والمفاضلةُ والمبالغةُ هنا على طريقةِ إرخاءِ العِنان والتّسليم الجدليّ، فلو سُلِّمَ لهم تحديدُ مفعول القدرة لكان يقتضي إمكانَ البعث بقياس الأحْرى، فإنّ إعادةَ المصنوع مرّة ثانية أهونُ وأيسَرُ على الصّانع من صَنْعَته الأولى، وأدْخَلُ تحت تأثير قدرته فيما تعارفَهُ النّاس في مقدوراتهم.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 421.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبداء والإيجاد:

الإبداءُ يدلُّ على افْتِتاحِ الشّيْءِ[1]، وتقديمِه على غيره ضربًا من التّقديم، ومَبْدَأُ الشّيء: هو الّذي منه يتركّب، أو منه يكون[2]، وبَدْءُ الخلقِ هو خلقه ابتداءً، أي إنشاؤه لأوّل مرّة[3]، بينما الإيجادُ في أصله هو الشّيُّ يُلْفيه[4]، ووجودُ الشّيء العثورُ عليه في الحيّز، والمَوْجود خِلافُ المَعْدوم، وأوْجَد اللّه الشّيْءَ من العَدَم فوُجِدَ فهوَ مَوْجود، وأوجد اللّهُ الكونَ: أنشأه من غير سَبْق مثال[5]، إذن فالإبداءُ هو فعلُ الشّيء أولًا ففيه إشارةٌ إلى البداية، بينما الإيجادُ هو وجوده في حَيّزٍ وإخراجه من العدم إلى الوجود، واصطفاءُ التّعبير بالإبداء هنا دون الإيجاد؛ للتركيز على الخلق أوّل مرّة، ولتتمّ المقابلة مع الإعادة؛ وهي الخلقُ مرّة ثانية، وليس المراد هنا مجرّد التركيز على الوجود والإخراج من العدم.

الإبداءُ هو الفعلُ ابتداءً وأوّلَ مرّة، والإيجادُ هو الوجودُ والإخراج من العدم

الإعادة والرَّدّ:

يتميّز لفظُ الإعادة بأنّ فيه معنى التّجدّد والتّكرّر لوجودِ الشّيء ولو بحالٍ مختلفة[6]، فأصلُ الإعادة يدلّ على تثنيةٍ في الأمر، أي تثنيةِ الأمر عَوْدًا بعد بَدْءٍ[7]، وفيه معنى الرّجوع إلى نقطة البداية، أي إلى سابقِ عهده، بعد الانصرافِ عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقولِ والعزيمة[8]، بينما يتميّز الرّدُّ: بمعنى رجوعِ الشّيء وصرفِه بذاته، أو بحالةٍ من أحواله[9]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هناك شيئًا خارجًا عن إرادةِ

الإعادةُ تكرُّرٌ لوجود الشّيء وهذا يتناسبُ مع إعادةِ الخلق مرّة ثانية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).
(2) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بدأ).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وجد).
(6) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عود).
(8) الرّاغب، المفردات: (عود).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد).

الشّخص الّذي ارتّد، وكأنّ أحدًا قطعَ عليه استرساله، وصرفه عن وجهته فينعكس اتّجاهه، ويرجع إلى الموضع الّذي ابتدأ منه[1]، واختيارُ التّعبير بالإعادة أنسبُ في مقابل البَدْءِ، وهو الخَلْقُ أوّلًا، فالإعادةُ هي تكرارُ الخلق مرّة ثانية.

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»